السفير

غوتنبرغ والطباعة

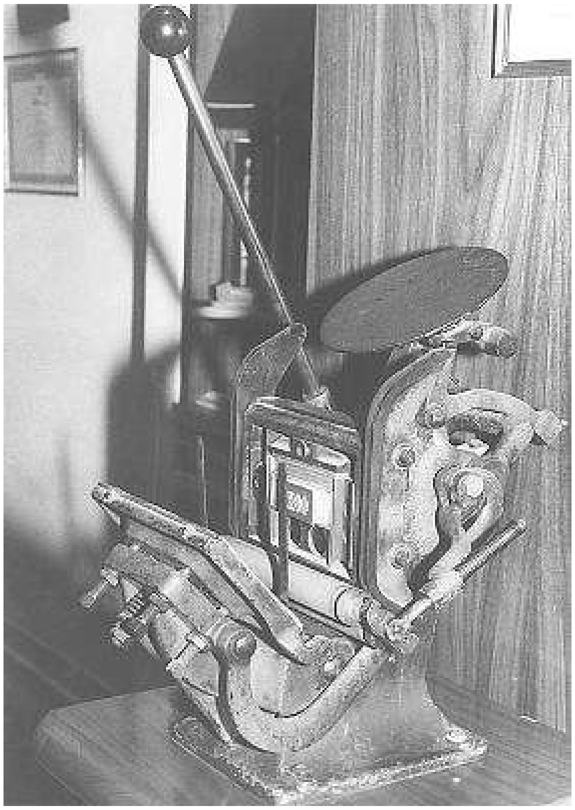
المطبعة في بدايتها

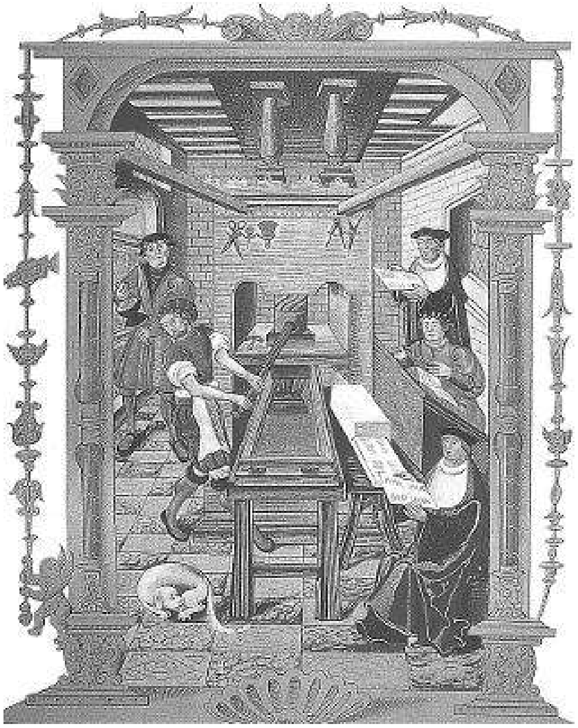

المؤلف: جابر عبير
التاريخ: 11-05-1999
رقم العدد:8291

شهدت أوروبا في القرن الخامس عشر نهضة اعتبرت فاتحة للتحولات التاريخية في المجالات كافة، وهي التي أدت الى التغييرات التي شهدها العالم ولا يزال حتى اليوم ثقافيا وعلميا وتقنيا وصناعيا وسياسيا. وهذه النهضة التي عرفت »بالنهضة الأوروبية« لم تنف ما قبلها بل تجاوزته وخلقت حيزا جديدا هو القائم على العقل الناقد، والمؤمن بالتطور

والتقدم عن طريق الإنسان وعقله ومقدرته على التغيير. وبدأت النهضة تتكرس بمختلف الأشكال وكان من أبرز معالمها اختراع الطباعة، فمهنة النسخ التي تطورت في النصف الأول من القرن الخامس عشر بقيت عاجزة عن مواكبة الحاجات الجديدة المتزايدة في مجالات الادارة والتجارة والتعليم والمعرفة. وكان من الممكن أن تصل النهضة الأوروبية الى طريق مسدود لو لم يوفر لها جوهانز غوتنبرغ أهم أداة ثقافية وهي المطبعة وذلك بين عامي 1450 و1454 في جنوب ألمانيا. ولم تكن صدفة أن يظهر اختراع الطباعة في تلك المنطقة، فهي غنية بمعدن الفضة وتنتشر فيها مراكز تصنيع المعادن والآلات الدقيقة المتعلقة بالعلوم الملاحية والفلكية وتقنيات فن الحفر بمختلف أشكاله، فغوتنبرغ أدرك ان دمغة الصائغ يمكن استخدامها لغرض طباعي وذلك من أجل ضرب حرف من حروف الكلمات على قالب معدني دقيق ثم تصب في هذا القالب سبيكة منصهرة من القصدير أو الأنتيمون تشكل بعد أن تبرد حرف طباعة قابلا للتغيير يتم استخدامه بواسطة أداة مطبعية ضاغطة. لبنان... أرض الحرف انتشرت الطباعة في مختلف أنحاء العالم ووصلت الى العديد من البلدان، وكان أول بلد عربي عرف المطابع هو لبنان، ففي سنة 1610 جلب رهبان دير قزحيا أول مطبعة الى الشرق مع حروف سريانية من روما وطبعوا فيها كتاب »مزامير داود« بالسريانية والكرشونية (السريانية المكتوبة بحرف عربي) وهناك نسخة منه محفوظة حتى اليوم في»المكتبة الشرقية « التابعة لجامعة القديس يوسف، كما هناك نسخة أخرى في جامعة »الروح القدس في الكسليك«. وقد أُهملت مطبعة دير قزحيا واندثرت لأن روما كانت ترسل كتبا مجانية الى الأديرة والكنائس، مطبوعة طباعة جيدة، فأهمل اللبنانيون الطباعة لقرن من الزمن تقريبا لأن البيئة الاجتماعية لم تكن مستعدة للاستفادة من هذا الفن. وبعد مئة سنة تقريبا أسس الشماس عبد الله الزاخر مطبعة في دير مار يوحنا في الشوير فعملت بصورة منتظمة مدة مئة سنة أخرى وقد درّب الزاخر الرهبان فيها على تنضيد الحروف والسبك والطباعة. وعام 1808 أحضر الراهب سيرانيم الشوشاني مطبعة معه من روما وأنشأ مطبعة ثانية في دير قزحيا خصصت لطباعة الكتب الدينية. وفي بيروت تأسست أول مطبعة على يد الشيخ يونس نقولا الجبيلي عام 1751 وهي مطبعة القديس جاورجيوس التي توقفت مع وفاته عام 1834. مرحلة النمو تأسست المطبعة الأميركية في جزيرة مالطا عام 1822 من قبل المبشرين الأميركيين، الذين نقلوا جزءا منها الى بيروت عام 1834 لتطبع وتوزع منشوراتها الى أنحاء الشرق العربي، ومع هذه المرحلة انطلق الحرف المشكول الذي بات يعرف ب»الأميركاني«، وأول ما صدر عنها كتب للمطالعة والتعليم ومبادئ النحو للشيخ ناصيف

اليازجي. وكان لهذه المطبعة دور في تلبية حاجة مدارس الإرسالية الأميركية في المناطق اللبنانية كافة. وكانت المطبعة الأميركية أول مطبعة تنشر صحيفة مصورة في الشرق العربي، كانت تزود المطابع الأخرى بالحروف. وكانت المطبعة الكاثوليكية قد أنشئت سنة 1848. وكانت أول مطبعة حجرية صغيرة من نوع »الأوتوغراف«. ولكن سرعان ما ثبت للرهبان اليسوعيين انها غير وافية بالغاية المطلوبة. وصادف مرور الكونت دي تريمون في بيروت سنة 1853 فحدثه رئيس الإرسالية عن المشكلة، فتبرع (الكونت) بستة آلاف فرنك لشراء مطبعة كاملة المعدات. وفي سنة 1854 قامت المطبعة الكاثوليكية الجديدة بطبع ألفي نسخة من كتاب »الاقتداء بالمسيح« الذي وزع مجانا على الناس، ثم جلبت المطبعة حروفا لاتينية لطبع النصوص الفرنسية. وتلقى الكاثوليك مطبعة أخرى هدية من اللجنة الفرنسية لمدارس الشرق. وأول مطبعة أسسها فرد في بيروت هي المطبعة السورية لصاحبها خليل الخوري وذلك لطبع صحيفته »حديقة الأخبار«، ثم أنشأ ابراهيم نجار المطبعة الشرقية عام 1858، ويوسف الشلفون الذي أسس المطبعة العمومية سنة 1861، ثم عاون المتصرف داود باشا في تأسيس مطبعة رسمية في بيت الدين. وتوالى إنشاء المطابع في بيروت والمناطق، لكن الطباعة عرفت نكسة بسبب الكساد الذي أصاب لبنان بعد فتح قناة السويس، ومع تخوف السلطات العثمانية من تدفق المطبوعات وازدهار الثقافة انتقلت المطابع من الجبل وبيروت الى الاسكندرية والقاهرة وبور سعيد. سنة 1874 أسس عبد القادر القباني صحيفة »ثمرات الفنون« وقد جلب لها مطبعة من لندن عرفت بمطبعة »جمعية الفنون« وبعدها بعامين أنشأ خليل سركيس المطبعة الأدبية التي كان لها الفضل في صنع الحرف الاسلامبولي الذي أعد أبهاته إبراهيم اليازجي وزودت هذه المطبعة بطابعتين تداران بالبخار وقد طبعت جريدة »لسان الحال« منذ ظهورها عام 1877. وبفضل مسبك هذه المطبعة المطبعة الكاثوليكية والأميركية لم تعد المطابع في حاجة الى استيراد الحروف العربية من الخارج، لأن الحروف المحفورة بأيد لبنانية (مثل إبراهيم اليازجي) قد أكفت المطبعة العربية خصوصا تلك التي أعدها لتستعمل في مبدأ الكلمة أو وسطها أو نهايتها. وسنة 1885 أنشأ محمد رشيد الدنا »مطبعة بيروت« وقد اشترى معداتها من المطبعة الكاثوليكية، وفي العام التالي أصدر صحيفته »بيروت«. وفي العام نفسه قررت الحكومة العثمانية تأسيس مطبعة في بيروت فكانت أول وآخر مطبعة رسمية عرفتها المدينة. ومع التشدد من قبل السلطات العثمانية في فرض الرقابة على المطبوعات والمتمثلة بضرورة نيل الموافقة قبل الطبع استطاعت بعض المطابع اجتياز هذا الأمر وكان منها مطبعة »الفوائد« التي أسسها خليل البدوي سنة 1891 وكانت أول

مطبعة تقتني محركا يدور بالكيروسين. وحتى العام 1903 بلغ عدد المطابع في بيروت ست عشرة مطبعة، إضافة لعدد من المطابع الصغيرة التي كانت متخصصة في طباعة المطبوعات والأوراق التجارية. وكان جزء من إنتاج هذه المطابع يصدر الى القاهرة والاسكندرية. أما خارج بيروت فقد عانت المطابع من ضعف نشاطها فاختفى عدد منها ونشأت أخرى مكانها، فأنشأ ابراهيم الأسود »المطبعة العثمانية« في بعبدا، وظهرت من خلالها صحيفة »لبنان« لصاحب المطبعة ومجلات أخرى مثل »المنار« و»الشمس« و»الصفا«. أما طرابلس فعرفت الطباعة بفضل محمد كامل البحيري وذلك سنة 1893 عندما أسس »مطبعة طرابلس«، وأصدر صحيفة »طرابلس الشام« وأسس الشقيقان فيليب وفريد الخازن مطبعة الأرز في جونية حيث طبعا صحيفة »الأرز«. وعرف لبنان فترة إيجابية مع ثورة تركيا الفتاة حيث ألغي القانون الذي يلزم كل من يرغب في تأسيس مطبعة أو صحيفة بالحصول على تصريح، ومن المطابع القليلة التي تأسست واستمرت »المطبعة البوليسية« التي أسسها المطران جرمانوس معقد عام 1910. وبعد الفترة المضنية التي شهدها لبنان خلال الحرب العالمية الأولى، عاد إليه نشاطه مع الانتداب حيث كثرت المطبوعات الفرنسية، كما أسس الأرمن المهاجرون الى لبنان عددا من المطابع التجارية. وعادت المطبعتان الأميركية والكاثوليكية لمزاولة نشاطهما، فاستقدمت الأميركية مطبعة أوتوماتيكية وآلة لينوتيب لتنضيد الحروف وكانت أول آلة من نوعها يعرفها لبنان. أما الكاثوليكية فجددت كل آلاتها. وفي دير المخلص أنشئت مطبعة عام 1925 واستخدمت الكهرباء فيها منذ العام 1929. وفي الحرب العالمية الثانية نشطت المطابع تلبية لاحتياجات المدارس، وعملت بعضها بالتعاون مع مطابع الجزائر ومصر وفلسطين لتأمين تلك الاحتياجات، ويعود الفضل بذلك الى شركة الآداب الفرنسية. وإضافة الى المواد التعليمية، فإن المطابع عملت أيضا في طبع المنشورات الدعائية، فعاد ذلك بالربح الوفير على أصحابها من الذين تمكنوا من تجديدها وتزويدها بآلات حديثة، وأسس أصحاب المطابع نقابتهم سنة 1944. وبعد الحرب تأسست مطبعة الرهبانية الشويرية عام 1947، وهي الرهبانية التي كانت مطبعتها الأولى قد توقفت عن العمل سنة 1899. وسجلت فترة الستينيات قفزة في الطباعة الملونة بواسطة آلات الأوفست الروتاتيف، وانتقلت مع مطلع السبعينيات الى التنضيد التصويري بواسطة الأدمغة الألكترونية. وأول مطبعة من هذا النوع دخلت دار الصياد عام 1954 من ماركة »جوهانسبورغ« انترتيب لطباعة مجلة الصياد. وتحضيرا لصدور جريدة »الأنوار« تم شراء آلة »روتاتيف« تسمى دوبلاكس وتطبع ثماني صفحات في وقت واحد. ومع التطور التقني عرفت المطابع اللبنانية سلسلة

من التطورات، فكانت أول ماكينات التصوير الطباعي لدار النهار، وكان أول من وضع صورة ملونة على »بلاك« هو ليون ترزيان مؤسس ليوغرافور للتصوير الطباعي وهو أول من فرز ألوان غلاف مجلة في الشرق وهي مجلة »الماغازين«، كما عاد وأدخل أول آلة حفر كليشيه أوتوماتيكية الى لبنان وأول آلة »سكانر« لفرز الألوان أوتوماتيكيا.
وعرف لبنان تطورا ضخما في قطاع الطباعة وتجهيزاته واليوم يعتبر من أول البلاد العربية التي تستخدم آلة الطباعة بثمانية ألوان دفعة واحدة إضافة الى العديد من التقنيات الأخرى مما يجعله رائدا في مجال الطباعة كما كان في نشر الحرف والمعرفة منذ أقدم العصور. نقابة الطباعة في لبنان تعود نواة »نقابة الطباعة« الى العام 1944 عندما اجتمع عدد من أصحاب المطابع وأسسوا »اتحاد أصحاب المطابع في لبنان«، وضم الاتحاد كلا من: جورج جدعون صاحب مطبعة جدعون، وانطوان خليفة صاحب مطبعة خليفة وألبرت ريحاني صاحب مطبعة صادر وريحاني، ووجيه طبارة صاحب مطبعة طبارة، وجورج عازار صاحب مطبعة عازار، وعبد القادر عيتاني صاحب مطبعة عيتاني، ومصطفى فتح الله صاحب مطبعة الكشاف، والأب كونون مدير المطبعة الكاثوليكية. وكان هدف الاتحاد درس شؤون وقضايا الطباعة وفروعها لتحسين هذا »الفن« وتطويره وصيانة مصالح القائمين عليه ورفع مستوى حرفتهم، والتوسط لحل جميع الخلافات والشكاوى وتقرير التدابير اللازمة لهذه الغاية في ظل القوانين المرعية الاجراء. وانتظر الاتحاد حتى العام 1947 لينال الترخيص بموجب القرار رقم 5210 الصادر عن وزارة الاقتصاد. وفي عهد النقيب مصطفى فتح الله تحول »اتحاد أصحاب المطابع« الى »نقابة أصحاب المطابع« وذلك في كانون الثاني عام 1960. وفي فترة ما بعد الحرب الأهلية عادت النقابة عام 1994 تحت اسم جديد هو »نقابة الطباعة في لبنان« برئاسة النقيب شاكر الشمالي. وقد توالى على رئاسة النقابة كل من: جورج جدعون (1945)، ألبرت ريحاني، جورج عازار، مصطفى فتح الله (1960 1963)، فرنسوا ريشا (1964 1967)، غالب بحيري (1968 1969)، وليد جبران تويني (1970 1994)، شاكر الشمالي (1994 1995)، جوزف الرعيدي (1995 198)، والنقيب الحالي متري جورج نصر الله. مشاكل يعاني قطاع الطباعة في لبنان من مشاكل عديدة أبرزها صعوبة إيجاد مصادر تمويل ذات شروط مقبولة لتمكين القطاع من مواكبة التطور خاصة وان الآلات تتطور بشكل دائم ومستمر والاكتشافات الجديدة تتطلب من أصحاب المطابع التجديد الدائم واستيراد التقنيات الحديثة وإلا كانوا خارج ركب التطور. من جهة ثانية، خسرت المطابع اللبنانية جزءا كبيرا من سوقها خلال سنوات الحرب، فالعديد من البلدان

أصبح لديها نوع من الاكتفاء الذاتي وبعضها الآخر يخضع للحصار كما هي حال العراق. ويشهد قطاع الطباعة مشكلة داخلية بين أقطابه حيث تقوم المضاربة العشوائية وغير المسؤولة بينهم مما يتسبب بمشاكل عديدة، ولعل غياب اليد العاملة المؤهلة تقنيا وفنيا لتشغيل آلات الطباعة المتطورة يعتبر السبب الرئيسي لمطالبة أصحاب المطابع بإيجاد كلية للطباعة تزود هذا القطاع بالعنصر العامل المثقف. ويعاني أصحاب المطابع من ارتفاع الرسوم والضرائب وخاصة الرسوم الجمركية على الآلات والمواد الأولية ويطالبون الدولة باستمرار تخفيض هذه الرسوم وتسهيل معاملات الاستيراد والتصدير للمطابع لأن هذا القطاع من أهم قطاعات الصناعات التحويلية في لبنان وبالإمكان زيادة حجمه إذا لعبت الدولة دورها في تفعيله كما يشكو أصحاب المطابع من الكلفة المرتفعة للكهرباء والضمان الاجتماعي وغيرها من المصاريف التي تثقل كاهلهم. ويتمنى أصحاب المطابع إجراء دراسة إحصائية للسوق المحلي لتنظيم هذا القطاع والسماح بازدهاره وتطوره.

البحث في الأرشيف الكامل لجريدة "السفير"

الكلمات الدالة

غوتنبرغ جوهانز | المطابع | نقابة عمال الطباعة والتجليد | صناعة الطبع | لبنان | الطباعة

شروط الإستخدام
جميع الحقوق محفوظة، شركة السفير ش.م.ل
للتواصل معنا archives.assafir.com